الرحمة مطلع رمضان

خطبة الجمعة للدكتور محمود أبو الهدى الحسيني في جامع العادلية بحلب بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢١م

نبارك لكم أيها الإخوة الأحبة وللأمة الإسلامية جمعاء بقدوم شهر رمضان المبارك، ونحن اليوم في آخر أيام شهر شعبان بحسب معظم البلاد الإسلامية، وفي أول يومٍ من أيام رمضان في بعضها الآخر، وما أروعه من موسم! وما أحلاها من خصوصية تنتظرها الأرواح، وتشتاق إليها القلوب، وتتطهر وتتزكى بها النفوس!

جاء في حديثٍ صحيح صحّحه السيوطي رحمه الله في جامعه الصغير وعزاه إلى ابن أبي الدنيا، عن النبيّ صلى الله عليه وسلم: **(أول شهر رمضان رحمة، ووسطه مغفرة، وآخره عتق من النار)**.

فما أحلى ظرفًا زمانيًّا يكون عَشْرُه الأول رحمة، وعَشْرُه الثاني مغفرة، وعَشْرُه الثالث عِتقًا من النار!

ونحن في عتبات هذا الشهر العظيم، شهرِ الله، الذي يغفر فيه لعباده، والذي يرحم فيه عباده، والذي يتفضّل فيه على عباده بالعتق من النار، ما أروع أن نواكب هذه الخصوصيات!

أما وإننا في عتبات الشهر وأوله، أي في معنى الرحمة، فإنه يحلو الحديث عن الرحمة، وما أحوجنا إلى الرحمة!

وما أحوجنا إلى رحمة الله تبارك وتعالى التي يرحم بها نفوسنا وقلوبنا وأرواحنا وأجسادنا!

وما أحوجنا إلى الرحمة التي تسري فينا ليرحم بعضنا بعضًا!

أما تذكرون حديث النبي صلى الله عليه وسلم: **(الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرحمن، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ)**؟

وحينما تتنـــزّل الرحمة من الله تبارك وتعالى فإنها تعني إكرامًا وإنعامًا، فهي من معاني إكرام الله تبارك وتعالى لعباده وإحسانه إليهم.

وهي باستعدادها وسَعتِها صالحةٌ لاستيعاب الكون كله، فهو سبحانه الذي قال:

{ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ } أي هي مستعدةٌ وصالحةٌ لاستيعاب الكون كله، لكنه قال سبحانه:

{ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ } [الأعراف: ١٥٦]

فالرحمة الواسعة الصالحة لاستيعاب كلِّ المخلوقات، أعطى الله سبحانه وتعالى منها لبعض عباده، وهو القائل سبحانه: { يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ } [العنكبوت: ٢١]

وهو القائل سبحانه: { رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام: ١٤٧]

وهو القائل: { وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } [العنكبوت: ٢٣]

إذًا: مع كون الرحمة صالحةً لاستيعاب الخَلق كلهم، لكنه سبحانه وتعالى أكرم بها بعض عباده، والإنسان الذي ينال رحمة الله تبارك وتعالى رابحٌ فائز، والذي لا ينال رحمة الله ويفوز بها فهو من الخاسرين.

واقرؤوا قوله تعالى: { فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [البقرة: ٦٤] فبرحمة الله يفوز الإنسان ويربح ويُفلح.

ونحن في أول شهر رمضان، وأولُه رحمة، ووجود الرحمة يتناسب مع إظهار العبد للفرح، فقد كان يفرح بالمادة، لكنه يرى عطاء الله وكرمه ورحمته في موسم الرحمة، فيفرح بالرحمة وهو يتذكّر قوله تبارك وتعالى:

{ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [يونس: ٥٨]

هذا هو عنوانُ أولِ شهر رمضان سلوكيًّا، والعنوان الشعوريّ الذي نُظهره في أول شهر رمضان أننا نحوّل الفرح من الفرح بالمادة المجموعة، إلى الفرح بفضل الله وبرحمته.

{ قُلْ } والمُخاطَب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقل لهم حتى يفهموا وحتى يُغيّروا وجهة قلوبهم، وقل لهم مُعلِّمًا، وقل لهم مُرشِدًا..

{ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا } فهذا مما يستحق أن يُفرح به.

{ هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } فقد كانوا عمرَهم كلَّه يجمعون من المادة ويجمعون ويفرحون بالمادة ويستبشرون.

لكن أهل الإيمان الذي فهموا عن الله سبحانه، وأدركوا موطن الفرح ووجهته، توجّهوا إلى فرحٍ آخر، فرحٍ بفضل الله وبرحمته.

إذًا: إظهار الفرح أيها الإخوة وأنتم تتحركون إلى صلاة التراويح، وأنتم تصومون لله تبارك وتعالى، وأنتم تنفقون من أموالكم في سبيل الله...

والإنفاق لا يتوقف عند الزكاة، فالزكاة فريضة عليك، وعليك أن تخرجها حينما يحول الحول، لكن عندما تُكثر من النفقة في شهر رمضان، وترى توفيق الله تعالى لك بهذا، فافرح وأَظهِر هذا الفرح.

افرح إذا وفّقك للقيام، وافرح إذا وفّقك للتقوى، وافرح إذا وفّقك لاجتناب الملاهي، وافرح إذا جعل ليلك توجُّهًا إليه، وافرح إذا جنّبك أن تكون كما يريد الملحدون وكما يريد المادّيون على فُتات مسلسلاتٍ فضائية بدلاً من أن تتوجّه بقلبك إلى الله سبحانه، وبدلاً من أن توظّف وقتك هذا من أجل أن يكون إقبالاً على الله.

يُشغل الإنسان بالراقصات، ويُشغل بالتُّرَّهات، ويُنتظر قدومُ شهر رمضان من بعض الذين في عقولهم سفه، ليكونوا أمام سفه يقدّم إليهم المفاسد كلها.

أين خصوصية رمضان؟ أين خصوصية الطهارة؟

أتكون ليالي شهر رمضان التي يَغفر الله فيها لعباده، والتي يرحم فيها عباده، ظرفًا للعهر؟!

أتكون ظرفًا للتُّرَّهات؟!

إنه الإشغال في حدّه الأدنى.

وإذا كنا ننظر إلى هذه الظاهرة التي عمّت العالم الإسلاميّ، فإننا نصفها في أقل تقدير بأنها الشاغل عن رمضان، فضلاً عمّا فيها من المنهيات الشرعية والمخالفات، وفضلاً عن أنها تشغل عن ذكر الله، وفضلاً عن أنها تشغل عن قراءة القرآن، وفضلاً عن أنها تشغل توجّه القلب إلى الله...

اجعلوا هذا الظرف الزمانيّ خَلوةً بينكم وبين ربكم.

وقد كان صلى الله عليه وسلم يخرج في شهر رمضان كله إلى غار حراء يَتَحنّث.

فأين غار حراء يا شباب؟

اجعلوا حياتكم وأنتم بين الناس في غار حراء كما قال الجريري أبو محمد رحمه الله: **"العزلةُ أن تدخل الزحام، وألا يزاحموك في سرّك"**، بأن يكون سرُّك موصولاً بالله وحده.

اعزموا، قبل أن يدخل الشهر عند المغرب في هذا اليوم، على أن تكونوا في الشهر كله عبادَ الله وحده.

فإذا كنتم في هذه النية يكون لكم رمضان.

وأما إذا كانت العادات في شهر رمضان طاغية على مفهوم العبادة، فإننا نكون قد حُرمنا من شهر رمضان، ومرّت الفرصة التي لا تتكرر في العام إلا مرة واحدة وقد لا تتكرر وقد تموت قبل أن يدركك رمضان القادم.

قال تعالى: { وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ } [الزخرف: ٣٢]

وقال سبحانه: { أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ } [الزمر: ٩]

وأنتم في وقت الرحمة، ألا نرجو في وقت الرحمةِ الرحمةَ التي نرجوها في كل وقت؟

{ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ } [الزمر: ٩] فالمصيبة هي في المعرفة، وفي عِلم الإنسان بربه، وحينما يطغى عِلم الإنسان بالمادة على عِلمه بربه تنصرف وجهته، وينتظر فرصة اللهو في رمضان.

أما عبد الله فإنه ينتظر الله في رمضان.

ومن أسباب الرحمة الخاصة كما ينقل إلينا القرآن الكريم:

١ - الاستماع للقرآن والإنصات له:

فحتى وأنت تقرأ القرآن استمع له، ولا تتوهم أن معنى: { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ } أن يقرأه غيرُك، فالقارئ هو الله سواءٌ كنت تاليًا أو كان غيرُك تاليًا، فهو القائل: { فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ } [القيامة: ١٨].

فالقارئ هو الله، فاستمع.

فسواءٌ كنتَ أنت تاليًا أو كان غيرُك تاليًا استمع وأنصت إلى الله فإنه يقرأ.

قال: { وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ } وهكذا أوردها بصيغة المجهول، حتى يتميّز الذين يعلمون من الذين يجهلون، لأن الجاهل يقول: من يقرأ؟ أما العالِم فإنه يعلم أن الذي يقرأ هو الله.

{ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الأعراف: ٢٠٤] فإذا أردتم الرحمة فاجلسوا بين يدي الله واسمعوا له، واعزموا في شهر رمضان أن تقرؤوا القرآن مرارًا، لا قراءةَ لسان إنما قراءة قلب وروح وعقل وانضباط وامتثال...

وإذا جالست محتَشَمًا فكيف تجلس؟

تذكّر هذا وأنت تجلس لتسمع من الله، فإن أنت فعلت هذا ستكون داخلاً في الرحمة.

٢ - وقال سبحانه: { وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ } [التوبة: ٦١]

فسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رحمةٌ للذين آمنوا منكم، كونَه صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين، لأنه حمل الرحمة للعالَم، لكن الرحمة التي للذين آمنوا هي رحمة خاصة.

وكما أخبرَنا سبحانه وتعالى أننا بالقرآن نُرحم، فبمحمد صلى الله عليه وسلم نُرحم.

تذكّر هذا وأنت في كل صلاة تقول وأنت في تشهّدك: **(السلام عليك أيها النبيّ)**، فأنت تجلس بين يدي الله، وتجلس بين يدي محمد صلى الله عليه وسلم تُسلّم عليه وتستمطر بسلامك الرحمة: { وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا }

فالقرآن حين تستمع له وتنصت هو سبب رحمة، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم حينما تفنى في حبه وتستغرق في معناه هو سبب رحمة لك، وأيُّ رحمة.

٣ - وقال سبحانه: { إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ } [الأعراف: ٥٦]

ادخل في الإحسان ظاهرًا وباطنًا، سلوكًا وقولاً وحالاً.

فالقرآن سبب رحمة، ومحمد صلى الله عليه وسلم سبب رحمة، والإحسان بمعناه الذي شرحه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بقوله: **(أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)**، هو سبب رحمة.

٤ - والطاعة لله سبحانه وتعالى ورسوله: والامتثالُ لأمره والاجتنابُ للمخالفات، سببُ رحمة، قال سبحانه: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [آل عمران: ١٣٢].

وكيف تسمح لنفسك أن ترتكب مخالفةً في وقت الرحمات؟

انضبط واستمع من الله ورسوله.

٥ - وقال سبحانه وتعالى:

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ } [التوبة: ٧١]

{ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ }

التفت إلى أُسرتك وأمُرها بالمعروف وأمرها بالطاعة وجنّبها المنكرات.

مر أصحابك وجنبهم المنكرات، وكن إمامهم بالتقوى.

{ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ } وإقامةُ الصلاة أن توجَد صورتها مع روحها، وأن تقف بين يدي الله في القيام وأنت موصول به لا بالدنيا، فإذا دخلت في الصلاة فاقطع عن قلبك علائق الأغيار.

{ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ } فإذا كنت ممن يُقصّر في إيتاء الزكاة فتدارك نفسك.

واليومَ في مدينة حلب وحدها لو أُخرجت فقط زكاة الأراضي المُعدّة للبيع لكفى ما يخرج من زكاتها فقراءَ سورية.

وهناك بعض من يستند إلى فتاوى لا صلة لها بالواقع، وقد أصدرت دائرة الإفتاء في حلب فتوى بأن إخراج الزكاة على كل الممتلكات (بما فيها الأرض التي هي مُعدّة لبيع) واجبٌ على المسلم في كل سنة، حتى لا يلتفت الإنسان إلى أقاويل قد يقولها له زيد أو عمرو.

فلو أُخرجت زكاة الأراضي في مدينة حلب لكفى ما يخرج من زكاتها فقراء سورية، فكيف لو أُخرجت زكاة الأرض في بلاد الشام كلها؟ وكيف لو أُخرجت في عالمنا الإسلاميّ؟

نحن أمة أعطاها الله سبحانه مقومات نهضتها، فأعرضت عن تلك المقومات.

نحن أمةٌ في تشريعنا النظريّ ما يضمن حضارتنا، لكننا اليوم نُعرض عن مفردات تشريعنا ونتعلّل، ويكذب علينا الكذّابون، ويبحث بعضُ من لا دين له عمن يُنجده بفتوى يترك بسببها الزكاة.

ثم قال: { وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ } من غير تردّد.

واختصر الصّدّيق رضي الله عنه الأمر حينما سُئل عن قولة قالها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **"إن كان قال فقد صدق"**، وانتهت القضية.

وأعجَبُ من الذين يُناقشون بعض الجزئيات مع ثبوت فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ومع ثبوت توجيهه إليها، لكنها الأهواءُ عمّتْ فأعمتِ.

ونهج سبيل واضح لمـــن اهتـــدى ولكنها الأهواء عمّـــت فأعمـــتِ

ثم قال: { أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ } [التوبة: ٧١]

٦ - **وقال سبحانه:** { لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [النمل: ٤٦]

اجعلوا باب رمضان باب التوبة، وتوبوا إلى الله من كل الذنوب.

"كَيْفَ يُشْرِقُ قَلْبٌ صُوَرُ الأَكْوَانِ مُنْطَبِعَةٌ فِي مِرآتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْحَلُ إلى اللهِ وَهُوَ مُكَبَّلٌ بشَهَواتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَ حَضْرَةَ اللهِ وَهُوَ لَمْ يَتَطَهَّرُ مِنْ جَنَابَةِ غَفَلاتِهِ؟ أَمْ كَيْفَ يَرْجُوْ أَنْ يَفْهَمَ دَقَائِقَ الأَسْرَارِ وَهُوَ لَمْ يَتُبْ مِنْ هَفَواتِهِ؟"، وهذه من أسباب الرحمة.

ومن أسباب الرحمة أيضًا:

٧- انتفاء الخلاف بين الإخوان: فلا تترك بينك وبين أحد قطيعة حتى تدخل في الرحمة، لأن الله سبحانه إذا رحم عباده ونظر إليهم بالرحمة والعطاء والمغفرة لم ينظر إلى مُشاحن ولا إلى قاطع رحم.

واقرؤوا قوله تبارك وتعالى: { إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } واشعروا بهذه الرابطة، ولنشعر جميعًا بهذه الرابطة، رابطةِ الإيمان، التي هي أقدس رابطة.

{ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ } فلابد أن تكون هناك شحناء، وهذا طبعٌ بشريّ وهذا لابد منه، فلابد أن يوجد الاختلاف، وهاهنا يتدخّل أهل الإصلاح وأهل التربية والدُعاة، من أجل أن يحذفوا هذا الاختلاف بالإصلاح.

{ وَاتَّقُوا اللَّهَ } في هذا الإصلاح، لأنه سبحانه وتعالى لا يرضى أن تتركوا الاختلاف.

{ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ } [الحجرات: ١٠] بإصلاحكم هذا، وبانتفاء اختلافكم.

لعلنا نكمل مبحث الرحمة في رمضان فيما يأتي إن شاء الله، فالرحمة في رمضان مبحث مُطوَّل يستغرق وقتًا، لكنني أحببت في مبتدى شهر الرحمة وفي ظرف الرحمة أن أتحدث ولو عن جزءٍ من هذا المبحث.

رُدّنا اللهم إلى دينك ردًّا جميلاً، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول هذا القول وأستغفر الله.